

الرؤية التاريخية في نهج البلاغة

محمد مهدي الآصفي



مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الرؤية التاريخية في نهج البلاغة

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

المطبعة:........................ مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1].

1ـ يوسف: ١١١.



هذه دراسة موجزة عن الرؤية التاريخية للامام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

وهذه المقالة كانت في الأصل محاضرة ألقيتها بمناسبة وفاة أمير المؤمنين عليه السلام في شهر رمضان على جمع من المؤمنين.

وقد تعهد فضيلة الشيخ عبد العظيم الأسدي (حفظه الله) بتدوين هذه المحاضرة من خلال استماعه للشريط الصوتي بشكل كامل (شكر الله سعيه).

فكانت هذه الرسالة، بعد أن أجريت عليها بعض التعديل، على قدر ما وسعنى الوقت إسال الله تعالى ان ينفع بها المؤمنين، وينفع بها كاتبها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

محمد مهدي الآصفي

النجف الاشرف

٢٠ ذ ق ١٤٣٢هـ



الامام أمير المؤمنين عليه السلام هو التلميذ الأول للقرآن، بلقاه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، نوراً وهدى وبيانا من عند الله.

وهو المعلم الثاني للقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ عنه أجيال المسلمين معارف القرآن جيلا بعد جيل. لا يشك في ذلك من قرأ تاريخ الصدر الاول للإسلام ممن تلقى العلم والمعرفة من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وخطبه وكتبه وكلماته نسخة مطابقة للقرآن في الافكار والتصورات والرؤى تطابق الفرع للأصل.

واذا قرأنا نهج البلاغة، فكأنما اخذنا من القرآن معارفه وبصائره وهداه.

ونحن في هذه المحاضرة نتحدث أن شاء الله عن التطابق بين القرآن ونهج البلاغة في الرؤية التاريخية للمجتمع والتاريخ والحضارة، واليكم هذه الدراسة القرآنية للمجتمع والتاريخ والحضارة من خلال كلمات الامام امير المؤمنين عليه السلام وخطابه وكتبه.

١. المذهب التاريخي في القرآن

عندما نستعرض الآيات القرآنية نجد خطوطاً واضحة تمكننا من رسم مجمل المذهب القرآني في حركة التاريخ.

والذي يقرء القرآن يجد أن القرآن يستعرض قضايا تاريخية كثيرة.

يستعرض قصة طالوت وجالوت، وقصة سبأ، وقصة قارون، ويعرض أحوال الأقوام البائدة مثل قوم لوط وقوم نوح، وثمود وأصحاب السبت وأصحاب الفيل وأصحاب الرسّ، وأصحاب الأخدود، وقصة بني إسرائيل وصراع موسى عليه السلام لطاغوت عصره فرعون، وقوم تُبّع، والمؤتفكة.

ليس القرآن كتاباً في التاريخ، يستعرض صفحات التاريخ كما في كتب التاريخ وإنما التاريخ في القرآن علم وعبرة.

وإذا أردنا أن نفهم عبر التاريخ وسُننه وقوانينه وأحكامه التي يرسمها الله تعالى لنا في كتابه فعلينا أن نقرأ تاريخ الأنبياء وقصصهم وحركتهم في مواجهة اقوامهم في

القرآن[1].

١ـ إن القرآن يستخرج لنا من هذا التاريخ الذي يعض علينا قصصه سنناً وقوانين وعبر.

وكما أنّ الأشياء في الكون تخضع لقانون العلية كذلك يؤكد القرآن بأن التاريخ والمجتمع والحضارة الإنسانية في ولادتها، ونموها، ونضجها، وضعفها، وانتكاسها، وسقوطها، وموتها تتبع قوانين وسنناً إلهية ثابتة.

ويؤكد بأنّ أمثال هذه الأحداث لا تحدث بصورة عفوية، وإنّما تحدث بموجب سُنن وقوانين، وأنّ هذه السنن من الله تعالى، وهي سُنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير[2].

يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[3].

وهي سُنّة عامة شاملة لجميع الأقوام ولا تختص بأمة دون أخرى.

يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ**

١ـ في رحاب القرآن ٩: ٧٩.

٢ـ في رحاب القرآن ١٠: ٢٧.

٣ـ الأنفال: ٣٥.

وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

والقرآن يؤكد هنا أنّ هذه الأقوام ظلموا أنفسهم، وجلبوا العقوبة على أنفسهم، وأهلكوا أنفسهم. بأيديهم، وبما جنوا على انفسهم. ولقد حاقت بهم سيئات ما كانوا يفعلون، وأخرجتهم من ساحة رحمة الله الواسعة، وأدخلتهم في دائرة العقوبات الالهية في الدنيا والآخرة إن كسب الإنسان وعمله يقع تحت اختياره، فإنه فعله يصدر عن إختياره، ولكن النتائج التي يستتبعها عمله وكسبه تقع بصورة حتمية ويكون هو رهيناً بها.

يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2].

وهي سنن الهية في حياة الناس:

يقول تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ

١ـ التوبة ٧٠.

٢ـ المدثر ٣٨، في رحاب القرآن ١: ٤١ بتصرّف يسير.

٣ـ الفتح: ٢٣.

تَجِدَ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[1].

قضاء وقدر آلهي. لا مفرّ منه، وكما جرت هذه السُنّة الإلهية في الذين خلوا من قبل. فإنها تجري على سائر الأقوام.

ويقول تعالى: **﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاّ بأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إلاّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾**[2].

فسوف لا تحلّ بهم إلاّ سُنّة الله في الأولين، وهي سُنّة ثابتة، لا سبيل إلى تبديلها وتحويلها.

إنها تشكّل الشطر الحتمي من دورة التاريخ، وتفعل وتؤثر بصورة حتمية ثابتة في حياة الإنسان، دون أن تتبدّل أو تتغيّر أو تتحوّل.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾.

إلاّ أن حتمية هذه العوامل في حركة التاريخ لا تعني حتمية حركة التاريخ. فإن حركة التاريخ في النظرية الإسلامية ليست حركة حتمية، وإنما هي تابعة لتحرّك

١ـ الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣.

٢ـ فاطر: ٤٣.

الإنسان وتوجّهه.

والنتيجة هنا تتبع أشرف المقدمتين.

ما يقع على الأمم السابقة يقع عليكم:

يقول تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[1].

والخطاب هنا للمنافقين.

والقرآن يريهم مآل أمرهم في مرآة التاريخ ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾. فإن ما أصاب أولئك سيصيبهم لا محالة، لاشتراكهم في نفس العمل.

ثم يذكرهم القرآن بأن الذين كانوا من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوة وأكثر أموالاً فاستمتعوا بحصّتهم ونصيبهم من الدنيا وما رزقهم الله ﴿**بِخَلاقِهِمْ**﴾، وأنتم ـ أيها المنافقون ـ مستمتعون بأيامكم ونصيبكم من الدنيا في الفساد والهوى.

١ـ التوبة: ٦٩.

وأنتم خضتم في الفساد وإيذاء المؤمنين والاستهزاء بالمؤمنين كالذي خاضوا ـ يعني ـ كما خاضوا.

ثم يبين لهم القرآن عاقبة الذين من قبلهم في نقطتين: ﴿**أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُّدنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾ بطلت أعمالهم وذهبت أدراج الرياح وكل جهدهم وعملهم.... وهذه هي النقطة الاولى.

وثانياً ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾. وهذه هي النقطة الثانية:

وهذا الحبط والخسارة تقعون فيه كما وقع من كان قبلكم.

والقرآن يعرض هذه الصورة المقنّنة من التاريخ ليجعل منها مرآة للناس ينظرون من خلالها إلى أنفسهم وعصرهم، ثم يؤكد بصورة متكررة الدعوة إلى النظر إلى هذه المرآة للاتعاظ والعبرة، وأن يعدّل الإنسان سلوكه وعمله من خلال النظر إلى هذه المرآة.

عندئذٍ تتحوّل هذه السنن إلى عبرة في حياة الإنسان:

وعي هذه السنن يحفظ الإنسان من أن يقع في المآسي التي وقعت فيها الأمم السابقة.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

كما لو كان الإنسان يعايش التاريخ.

فإن المعايشة تزود الإنسان بالبصيرة والوعي والعبرة بينما القراءة الساذجة للتاريخ لا تزود الإنسان بهذه البصيرة.

إذن القرآن يعلمنا التاريخ حين يكشف لنا أحوال الأمم السابقة، ولكنه يضيف إلى ذلك معرفة أخرى وهي كيف نقرأ التاريخ.

٢. قراءات جديدة للتاريخ في نهج البلاغة.

في نهج البلاغة يعلّمنا أمير المؤمنين عليه السلام أمرين هامّين في علاقتنا بالتاريخ هما: استنطاق التاريخ، ومعايشة التاريخ.

أ. استنطاق التاريخ:

نقرأ في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة القاصعة كيف نستنطق التاريخ.

فيقول عليه السلام: (وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء).

والاستنطاق غير قراءة السرد التاريخي، فإن هناك قرءات متعددة للتاريخ، قراءة العرض والسّرد التاريخي، وقراءة الدلالات، وقراءة النتائج.

وبعد ذلك تأتي مرحلة استخلاص السنن والقوانين من خلال هذه الدلالات، وقراءة المستقبل من خلال هذه السنن.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (لو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية لقالت ذهبوا في الأرض ضلالاً، وذهبتم في أعقابهم جهّالاً).

هذا النوع من التعامل مع التاريخ وهذه الطريقة في قراءة التاريخ هي الاستنطاق وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الكلمة يفتح علينا هذا النوع من القراءة.

يقول عليه السلام في خطبة القاصعة: (وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف يكون في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً؟ اتخذتهم الفراعنة عبيداً، فساموهم سوء العذاب، وجرّعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم من ذلّ الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع،

ولا سبيلاً إلى دفاع)[1].

وهذه هي مرحلة الابتلاء والتمحيص التي تهيئ الأمة للصلاح والاستقامة، ولابد لكلّ استقامة وصلاح في حياة الأمم من المرور بمرحلة من الابتلاء والتمحيص، الذي يُعدّ الأمة للاستقامة والعودة إلى الله تعالى.

ب. معايشة التاريخ.

ومعايشة التاريخ غير قراءة التاريخ، والإنسان بالمعايشة يفهم ما لا يفهم بالقراءة، ويستنتج من الخبرات ما لا يستنتج من القراءة.

المعايشة تعطي الإنسان النضج والخبرة، ويحصل على نضج الشيوخ بالمعايشة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: (أي بني، إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم حتى عدتُ كأحدهم، بل كأنما بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرتُ مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كَدَره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل

١ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١: ١٧٧.

أمر نخيله، وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهوله)[1].

والنخيل: المختار المصفى.

٣. التاريخ علم:

التاريخ ليس مجموعة حوادث غير مترابطة، تحدث صدفة وعفواً، وإنما هي مجموعة سنن وقوانين ومبادئ.

والقرآن يشير بشكل خاص إلى هذه المسألة، ويؤكد بأنَّ أمثال هذه الحوادث لا تحدث بصورة عفوية، وإنمّا تحدث بموجب سُنن وقوانين، وأنَّ هذه السنن من الله تعالى وأنها سنن ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير.

والتاريخ إذا كان شتاتاً من الأحداث المتفرقة التي تتجمع وتتفرق بصورة اعتباطية، ومن دون قانون وسُنّة... تفقد الشفافية التي تمكّن الإنسان أن ينظر من خلالها إلى نفسه وعصره وأمته، ولكن عندما يكون التاريخ مجموعة من السُنن والقوانين الثابتة فإن بإمكان الإنسان أن ينظر من خلال مرآة التاريخ إلى نفسه وعصره، ويقوّم من خلال هذه المرآة نفسه ومجتمعه.

إن استعراض التاريخ في القرآن الكريم يتمّ من خلال

١ـ نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

الأصول والقوانين الثابتة في حركة التاريخ.

وعلى خلاف ما يتصور الناس أن التاريخ مجموعة من الاحداث غير مترابطة وغير متناسقة، وغير خاضعة لأسباب وعلل معروفة، يقرر القرآن من خلال العرض التاريخي: أن التاريخ علم. ويعرف هذا العلم من يحسن استنتاج القوانين والسنن من استعراض التاريخ.

والمشهد التاريخي حوادث مترابطة ولهذه الحوادث أسباب ولأسبابها أسباب.

والأسباب الموحدة في الظروف الموحدة تؤدي إلى نتائج واحدة.

وهكذا يحول القرآن التاريخ إلى علم.

وكذلك المجمع، فإذا سقط، وإذا انتصر، وإذا انهزم، وإذا كان ضعيفاً، وإذا كان قوياً، فإنه في جميع حالاته يخضع إلى سنن وقوانين. لأن التاريخ علم والاجتماع علم.

والقرآن الكريم ينظر إلى هذه السنن والقوانين والأصول الثابتة في حركة التاريخ من خلال نظرته الشمولية في (التوحيد) وينسب هذه السُنن إلى الله تعالى جميعاً، وينفي أن تكون هذه السُنن تجري بمعزل عن مشيئة الله أو خارجة عن إرادة الله تعالى.

وهذه هي الميزة الأولى للرؤية الإسلامية إلى السُنن والقوانين عن الرؤية المادية.

والحياة الاجتماعية والحضارة البشرية والتاريخ ليست بدعاً من الأمور في هذا الكون... ولا يمكن أن نستثني شيئاً في هذا الكون من قانون العلية، ونتائج هذا القانون دائماً نتائج حتمية لا يمكن أن تتخلف عن أسبابها وظروفها، وهذه النتائج تعم كل الحالات المشابهة، وتتكرر كلما تتكرر الأسباب والظروف المؤدية إلى وجودها... فالحياة الاجتماعية والتاريخ ـ إذن ـ يسيران بموجب نظام وقانون دقيق، وبنفس الدقة التي تجري قانون العلية في الفيزياء[1].

٤. سنن التاريخ والمجتمع

القوانين والسنن هي علاقة الأسباب والمسببات. وهذه العلاقة من حتميات الكون، والعلاقة بين الأسباب والمسببات هي من المبادئ العامة في الكون، لذلك يقال له قانون العلية العامة ،لا يختص بحقل من الحقول.

هذا القانون العام يجري في جميع الحقول، في الفيزياء والرياضيات والتاريخ والمجتمع، يعني كل شيء يخضع

١ـ في رحاب القرآن: ٢٤.

لهذا القانون.

وهذا القانون كما يتصف بالعموم والشمولية، يتصف بالحتمية والضرورة.

والتعبير عنه بالضرورة والوجوب والحتم شيء واحد.

الاصول الاربعة لقانون العلية

ونشير هنا على نحو الاجمال الى الاصول الاربعة في قانون العلية العامة، وهي تجري في الفيزياء وما وراء الفيزياء، وفي الحضارة والمجتمع والتاريخ على نحو سواء. وهذه الاصول هي:

١ـ ضرورة المعلول وحتمية وجوده عند وجود السبب وعدم تخلّف المعلول عن العلّة.

٢ـ تقارن العلة والمعلول في الوجود، وتخلف المعلول عن العلة في الرتبة، فان رتبة الحرارة متخلفة عن رتبة النار بالضرورة، لان الحرارة مسببه عن النار، ولكنها متقارنان في الوجود. ومهما وجدت النار، وجدت الحرارة بالضرورة.

٣ـ السنخية بين العلة والمعلول: فلابدَّ من أن يكون المعلول من سنخ العلة، وإلاّ أمكن صدور أي شيء من أي شيء، وامكن ان نجني الرطب من شجرة الرمان،

والرمان من النخيل.

٤ـ التعميم: ونظراً لذلك يمكن تعميم أحكام العلية في الظروف المتماثلة فإذا على الماء في درجة حرارة المائة (١٠٠) على مستوى البحر فلابد أن يغلي كل ماء في الظروف المماثلة من دون استثناء.

ومن هذه الاصول الاربعة: (الضرورة، المقارنة، السنخية، التعميم) ينتظم قانون (العلية العامة) في الكون.

والحياة الاجتماعية والحضارة البشرية والتاريخ ليست بدعاً من الأمور في هذا الكون... ولا يمكن أن نستثني شيئاً في هذا الكون من قانون العلية، ونتائج هذا القانون دائماً نتائج حتمية لا يمكن أن تتخلّف عن نتائجها وظروفها، وهذه النتائج تعمّ كلّ الحالات المشابهة، وتتكرر كلما تتكرر الأسباب والظروف المؤدية إلى وجودها... ومعنى ذلك أن كل واحد من أصول قانون العلّية من (الحتمية والتقارن[1] والتعميم والمسانخة) يجري في الحقل

١– لابد من التوضيح بأن من اجزاء العلة في المجتمع والتاريخ والحضارة : (الزمان)، ولا تكتمل أجزاء العلة من دون عنصر الزمان. وعليه فليس معنى أصل التقارب بين العلة والمعلول في التاريخ والمجتمع الغاء الزمان وتقارب الاسباب

الحضاري والتاريخي كما يجري في حقول المادة. والظاهرة الحضارية لا تختلف عن الظاهرة المادية في أنها تخضع لنفس القوانين والأصول التي تخضع لها الظاهرة المادية... فالحياة الاجتماعية والتاريخ ـ إذن ـ يسيران بموجب نظام وقانون دقيق، وبنفس الدقّة التي تجري قانون العلّية في الفيزياء[1].

القرآن يدخل التاريخ والمجتمع في حقل العلم:

أول كتاب يدخل التاريخ والمجتمع في حقل العلم هو القرآن، ويعطيه صورة علّية وقانون.

والقرآن الكريم صريح وواضح في إقرار مبدأ العلّية في مجال المادة الفيزياء، وفيما وراء المادة والفيزياء، وفي التاريخ والمجتمع[2].

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا**

والمسببات في التاريخ في وقت واحد. ولابد لهذه المسألة من توضيح اكثر لا يسعه المقام.

١ـ في رحاب القرآن ١٠: ٢٤.

٢ـ في رحاب القرآن ٨: ١٣٢.

بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

يعني ليس التاريخ والمجتمع مجموعة حوادث متفككة تجري من دون نظام وإنما تجري بنظام وطبقاً للقوانين والسنن.

وفي تاريخ الفكر الإسلامي نلتقي لأول مرة هذا اللون من الفهم العلمي للمجتمع والحضارة في القرآن، ونعرف أن الحضارة البشرية تخضع لسلسلة من العلل والقوانين وتتبع قوانين وأصولاً يسمّيها القرآن الكريم بـ(السُنن الإلهية)، ونعرف أن هذه القوانين ثابتة لا تتبدل في حياة الإنسان ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[2].

سنن التاريخ والمجتمع في نهج البلاغة:

نهج البلاغة بالنسبة الى القرآن فرع مطابقة للاصل، ونسخه مطابقة للقرآن في الافكار والمفاهيم والاصول.

في نهج البلاغة نقرأ أفكار القرآن، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يعكس لنا في كلماته وخطبه وكتبه التاريخ

١ـ الرعد: ١١.

٢ـ في رحاب القرآن ١٠: ٢٦.

على شكل سُنن وقوانين.

يقول عليه السلام: (أما بعد، فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه)[1].

يعني اشتروا حقهم بالارتشاء وبالذل واقتدوا بهم بالباطل.

ويقول عليه السلام: (فوالله ما غُزيَ قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلّوا)[2].

ويقول عليه السلام لأبي ذرّ حين إبعاده إلى الربذة (ولو أن السماوات والأرض كانتا على عبدٍ رتقاً، ثم اتقى الله، لجعل له منهما مخرجاً)[3].

ويقول عليه السلام: (أمّا بعد، فإن الله لم يقصم جبّاري دهر قطّ إلاّ بعد تمهيل ورخاء، ولم يجبر عظم أحدٍ من الأمم إلاّ بعد أزل وبلاء، وفي دون ما استقبلتم من عتب وما استدبرتم من خطبٍ، وما كلّ ذي قلب بلبيب، ولا كلّ

١ـ نهج البلاغة: الكتاب ٧٩.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٣٠.

ذي سمع سميع، ولا كل ناظر ببصير)[1].

(فانظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين)[2].

(اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غُزى قوم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا)[3].

ويقول عليه السلام: (تُكادون، ولا تكيدون، وتَنتقص أطرافكم فلا تمتعضون، ولا يُنام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون، غُلب والله المتخاذلون)[4].

ويقول عليه السلام: (من صارع الحق صرعه)[5].

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ٨٨.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٤ـ نهج البلاغة: الخطبة ٣٤.

٥ـ نهج البلاغة: الحكمة ٤٠٨.

ويقـول عليه السلام: (وتـدبّروا أحـوال الماضـين مـن المـؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء؟ ألم يكونـوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الـدنيا حـالاً... حتـى إذا رأى الله سـبحانه جـدّ الصـبر مـنهم علـى الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهـم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العزّ مكـان الـذلّ، والأمـن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكّاماً وأئمة أعلاماً)[1].

وهـذه هـي المرحلـة الأولـى مـن الـدورة الحضـارية للتاريخ، مرحلة ولادة الحضارة الإلهية ونشوئها[2].

ويقول عليه السلام: (كم من مستدرج بالإحسان إليـه، ومغـرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيـه ومـا ابتلـى الله أحـداً بمثل الإملاء له)[3].

ويقول عليه السلام: (إنّ الله لم يقصم جبّاري دهر قـطّ إلاّ بعـد تمهيل ورخاء، ولم يجبر عظم أحدٍ من الأمم إلاّ بعـد أزل

١ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢.

٢ـ في رحاب القرآن ٥: ٢٧.

٣ـ نهج البلاغة: الكلمة ١١٦.

وبلاء)[1].

ويقولعليه السلام: (ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجا من مساغ ريقه)[2].

ويقول الإمامعليه السلام في سُنّة التعميم: (أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿**فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ**﴾ فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة)[3].

ولا تغير هذه السُنة الإلهية في تعميم الإدانة والمسؤولية والعقوبة كثرة الراضين بها، فإن الإدانة والمسؤولية واستحقاق العقوبة يشملهم جميعاً مهما كثروا، إذا كانوا راضين بالجريمة[4].

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ٨٨.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٧.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٠١.

٤ـ في رحاب القرآن ٨: ٢٦.

يقول تعالى: ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا**﴾[1].

يقول عليه السلام: (الراضي بفعل قومٍ كالداخل فيه معهم، وعلى كلّ داخل في باطل إثمان، إثم العمل به، وإثم الرضى به)[2].

الجماعة والامة في نهج البلاغة

لا تدور الاحكام والسنن الالهية مدار الفرد فقط، وإنما تشمل الفرد والأمة، وكما للافراد : موت وحياة وآجال، وظهور وأقول، طفولة وصبي وشباب وشيخوخة، وغنى وفقر، وطاعة وعصيان، وتقدم وتخلف، ونشاط وكسل، وسعادة وشقاء.... كذلك للأمم، نفس الحالات. ولادة وحياة وأجل وموت، وظهور وصعود وسقوط، وغنى وفقر، وحركة وخمول، وتقدم وتخلف، وقوة وضعف، وعز وذل، ومقاومة وخنوع..... ولكل ذلك اسباب وعلل.

١ـ الشمس: ١٤.

٢ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ١٥٤.

ونقرأ في نهج البلاغة هذا التحليل القرآني العزيز لشخصية الامة، ونعجب ان يظهر هذا الفكر المتطور في عصر كان العلماء يرون ان المجتمع مجموعة من الافراد فقط، وليس للمجتمع والحضارة والتاريخ كيان مستقل ما وراء الافراد.

وإليك بعض الشواهد:

١ـ يقول تعالى: ﴿**مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**﴾[١].

﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[٢].

وللأمة موت وحياة كما للفرد موت وحياة. وواضح أن الأمة لا تموت مرّة واحدة وإنما يموتون بالتدريج. فالمقصود هنا بالأجل السقوط الحضاري.

٢ـ لكل أمة كتاب، كما أن لكل فرد كتاب.

وعن كتاب الفرد يقول تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ**

١ـ الحجر: ٥، المؤمنون: ٤٣.

٢ـ الأعراف: ٣٤.

طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

وعن كتاب الأمة يقول تعالى: ﴿**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾[2].

فالمجتمع والأمة لها حساب واحد وكتاب واحد، باعتباره كياناً واحداً وهذا كتاب آخر غير كتاب الفرد.

٣ـ ولكلّ أمة إثم وذنب.

يقول تعالى: ﴿**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾[3].

٤ـ وللأمة عمل صالح وعمل سيئ.

يقول تعالى: ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**

١ـ الإسراء: ١٣ ـ ١٤.

٢ـ الجاثية: ٢٨.

٣ـ غافر: ٥.

وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وفي الكلام المتقدم يعطي الإمام علي عليه السلام للأمة عذاباً واحداً وعقاباً واحداً.

وهكذا يقررّ القرآن للأمة فعلاً وكسباً، وهو غير فعل الفرد وكسبه، ويقرر نتائج كسب الأمة كلها في الخير والشر، حتى لمن لم يشارك، ولم يكن له دور في هذا الكسب... إذا كان يشاركهم في الرضا والسخط.

٥. قراءة المستقبل

من أصول مبدأ العلّية العامة التّعميم.

ومعنى التعميم أن الحادث الذي يحدث في ظروف معينة وبسبب معين يجب أن يحدث بنفس الظروف والأسباب في كل زمان ومكان. كما أن الماء إذا غلى

١ـ آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤.

٢ـ الأنعام: ١٠٨.

الماء في درجة حرارة (١٠٠) على مستوى البحر فلابدّ أن يغلي كل ماء في الظروف المماثلة من دون إستثناء.

وهذا هو معنى تعميم أحكام العلية في الظروف المتماثلة.

والقرآن يسمي القانون بالسنة.

وهذه السنن تجري ولا تتبدل ولا تتغير من زمان إلى زمان آخر ومن مكان إلى مكان آخر.

يقول تعالى: ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**﴾.

﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ**﴾.

﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾.

﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾[1].

وهذا هو معنى قانون التعميم أي أن السُنّة لا تتبدل.

ومن خلال هذه السنن الثابتة يقرأ الإنسان الحاضر والمستقبل. وهذه القراءة ليس من التنبّؤ ولا من الغيب،

١ـ الإسراء: ٧٧.

وإنما هو من العلم أي العلم بسنن الله.

وأمير المؤمنين عليه السلام في كلماته يؤكد على هذه القراءة، وهي قراءة المستقبل من خلال الماضي ورؤية المستقبل في مرآة الماضي.

يقول عليه السلام: (عباد الله إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين، لا يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه، آخر فعاله كأوّله، متشابهة أموره، متظاهرة أعلامه)[1].

وبعدما يستخرج الدلالات يعمم النتائج.

فيقول عليه السلام: (فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال)[2].

ثم يقول عليه السلام: (أوَلستم أبناء القوم والآباء، وإخوانهم والأقرباء، تحتذون أمثلتهم، وتركبون قدّتهم، وتطؤون جادّتهم)[3].

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة الغراء ٨٣.

ومعنى ذلك أن الإمام عليه السلام يعمد أولاً إلى استخراج القوانين والسنن من التاريخ وبعد ذلك يعمم تلك القوانين والسنن على سائر الأمم.

وهكذا يتحول التاريخ من سرد وعرض للأحداث إلى علم له قواعد وأصول.

كيف يتحوّل التاريخ من علم إلى عبرة وعظة؟

وهذا فهم جديد للتاريخ حينما نفهم الحاضر والمستقبل من خلال الماضي.

واعتبار الماضي مرآة لفهم الحاضر.

وإذا تمّ لنا هذا الوعي التاريخي فإننا نستطيع أن نقرأ الحاضر والمستقبل من خلال الماضي، وهذه القراءة ليست بالغيب ولا بالتنبّؤ، وإنما علم ومعرفة، وكما نعرف في الفيزياء والكيمياء النتائج من خلال مقدماتها وأسبابها، فإننا كذلك نعرف في التاريخ والمجتمع النتائج من خلال السنن الحاكمة في التاريخ والمجتمع، دون أن يكون ذلك من التنبّؤ وعلم الغيب.

وعندئذٍ يتحوّل التاريخ من علم بأحوال الماضين إلى

علم بالحاضر، وهنا يتحوّل التاريخ إلى موعظة وعبرة لنا، لأننا سنرتبط بالأقوام السالفة من خلال السنن الحاكمة على حركة التاريخ.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

وبذلك نخلص إلى أن القراءة الواعية للتاريخ تنتج لنا عدة نتائج منها:

١. العلم بالسنن.

وهذا الأفق فتحه القرآن. ومن القرآن يعرف الإنسان نبأ الماضي وخبر المستقبل وحكم الحاضر. لأن القرآن يكشف لنا سُنن الله تعالى المهيمنة على حركة التاريخ.

وما أجمل تعبير الإمام عليه السلام تلميذ القرآن الأول، ومعلّم القرآن الثاني.

حيث يقول عليه السلام: (وفي القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم)[1].

(في القرآن نبأ ما قبلكم). أي أخبار الأقوام البائدة التي

١ـ نهج البلاغة: الكلمة ٣١٣.

يسلّط القرآن الضوء على أحوالها ومصائرها، يكشف لنا خبر ثمود وقوم عاد وبني إسرائيل وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود وفرعون ونمرود.

وهذه حقيقة واضحة لكلّ من يقرأ آيات القرآن.

ولكن الإمام عليه السلام يضيف إلى هذه المعرفة التاريخية أمراً آخر يحوّل هذه المعرفة إلى علم، فيقول عليه السلام: (وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم).

فكيف يكون ذلك؟

كيف تتحوّل هذه المعرفة التاريخية بأحوال الماضين إلى علم بالمستقبل وحكم بيننا؟

والجواب: لأن القرآن يحوّل التاريخ إلى علم ويعطينا قواعد حركة التاريخ، ويعطينا الأصول والقواعد والأسباب، وعندئذٍ يتحوّل التاريخ إلى علم، والعلم يكشف لنا حكم الحاضر والمستقبل، ففي القرآن نقرأ الماضي أولاً ونقرأ الحاضر والمستقبل بعد ذلك. فتكون قراءة الحاضر والمستقبل من قراءة الماضي.

وعندما يتحوّل التاريخ إلى علم بالسُنن والقوانين،

وعندما نستخرج من التاريخ السّنن والقوانين عندئذٍ تتحوّل قراءة الماضي إلى قراءة المستقبل.

وهذا هو فقه التاريخ ووعي التاريخ.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إنّ فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم)[1].

والعلم بما يأتي ليس بمعزل عن الحدث عن الماضي. ودواء داءنا أيضاً نأخذه من حديث الماضي.

٢ـ العبرة والاعتبار.

هاتان الكلمتان وردتا في القرآن.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾[2]، ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾[3].

والعبرة والاعتبار ـ كما يقول الراغب الأصفهاني ـ

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

٢ـ آل عمران: ١٣، النور: ٤٤.

٣ـ الحشر: ٢.

العبور من حال المشاهدة والتجربة الحاضرة إلى الحالة غير المشاهدة، ومن الماضي إلى المستقبل والحاضر.

بعض الناس يتوقفون عند التاريخ، ويقرءون سقوط الدولة العباسية والأموية وقيامها كما يقرءون ألف ليلة وليلة. يعني يقرءون الحدث بدون استنتاج الدلالات منه، ولا يعبرون من الحدث إلى دلالاته، ولا من الماضي إلى الحاضر والمستقبل.

هذه الشريحة من الناس لا تستطيع استنطاق الحدث التاريخي فيبقى لديهم الحدث أبكم لا ينطق، وبذلك لا يعبرون الحدث.

وهناك شريحة أخرى أكثر وعياً بدور التاريخ في حياتنا، فيعبرون الماضي إلى الحاضر والمستقبل، ومن الحال المشاهدة إلى الحالة غير المشاهدة... وهذا هو العبور.

هؤلاء لا يتوقفون عند الماضي... لأنهم يستنطقون الحدث فهم يسألون والتاريخ يجيب، وهم يعون الماضي ولا يتوقفون عنده بل يعبرون إلى دلالته.

هذه الشريحة الواعية من الناس يصفهم القرآن بأولي الأبصار، وأولي الألباب.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[1].

إذن الحدث التاريخي ينطق لأولي الأبصار وأولي الألباب، ومن لم يكن من أهل البصائر فلا يكشف له الحدث عن دلالاته، ومن يخشى الله تعالى فهو العالم الحقيقي.

يقول تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

هؤلاء يسمعون، أماّ غيرهم من الناس فلا يعبرون من الماضي إلى المستقبل ولا يتجاوزون الحدث الى السنن.

٣ـ العبرة والوعي والتقوى.

إن العبرة تنبع من الوعي والبصيرة من جانب، وتتحوّل إلى تقوى في السلوك من جانب آخر.

ذلك أن أصحاب الوعي والبصائر يستخرجون العبرة

١ـ النازعات: ٢٦.

من الحدث التاريخي، ولا يتوقفون عنده، بل يعبرونـه إلـى دلالاته، والأكثر من ذلك أنهم يعبـرون العبـر النظريـة الـى التقوى في السلوك العملي.

العبرة والبصيرة.

يقـول أميـر المـؤمنين عليه السلام: (ومـن لـم ينفعـه الله بـالبلاء والتجارب لم ينتفع بشـيء مـن العظـة، وأتـاه التقصير مـن أمامه)[1].

يعني التقصير يكون بسببه هو.

وهنا الإمام عليه السلام يقـول إن الـذي لا تنفعـه التجـارب ولا يعتبـر بهـا لا ينفعـه شـيء إطلاقـاً... وهـذه أسـوأ حـالات الإنسان أن يحتجب بشكل كامل عن حجج الله... يعني أنَّ الذي ليس له وعي ومعرفة تمكّنه من الانتفاع من الـبلاء لا يتعظّ ولا يأخذ عبرة.

ويقول عليه السلام: (وُقر سمعٌ لم يفقه الواعية، وكيـف يراعـي النبأة من أصمّته الصيحة)[2].

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة ٤.

والمعنى صُمّ سمعٌ لم يفقه نداء العبرة الواعية ونداءات التاريخ الواعية، وكيف يسمع ويتلقّى النبأة الأصم الذي أصمّته الصيحة.

يقول عليه السلام: (فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، ومن تبيّنت له الحكمة عَرَف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين)[1].

وهنا مجموعة معادلات:

١ـ (فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة): أي أصحاب البصائر تستخرجون الحكم والسَّنن من خلف الأحداث. أما غير أصحاب البصائر فلا يرون إلاّ الأحداث، ملك يسقط وآخر يظهر. أماّ أصحاب البصائر يعرفون لماذا ذهب ذاك ولماذا جاء الآخر.... وهذ هي المعادلة الاولى.

٢ـ (ومن تبيّنت له الحكمة عرف العبرة):

والذي يعرف القوانين والأصول يتمكّن من العبرة والاعتبار. وهذه هي المعادلة الثانية.

٣ ـ (ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين):

١ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٣١.

والذي يملك العبرة يتمكّن من المعايشة.... وهذ هي المعادلة الثالثة.

ويقول عليه السلام: (واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يَتعظ بكم من بعدكم)[1].

العبرة والتقوى:

وتتحول العبرة إلى تقوى في السلوك.

يقول عليه السلام: (ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم: إن من صرّحت له العِبر عما بين يديه من المُثلات حجزته التقوى عن تقحّم الشهوات)[2].

وهنا يجعل الإمام عليه السلام ذمته رهناً بالحقيقة التي يريد أن يقررّها بقوله: (ذمتي بما أقول رهينة)، ويضمن صحّة وصدق هذه الحقيقة بقوله: (وأنا بها زعيم).

وأما الحقيقة فهي: إنَّ من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات (العقوبات) حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، أي إن الذي يتخذ مما بين يديه من عقوبة الله (المثلات) للأمم الماضية... عبرة، ويتخذ درساً عمّا بين

1ـ نهج البلاغة: الخطبة ٣٢.

2ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

يديه (من الأمم الماضية) من المثلات والعقوبات تحجزه التقوى عن تقحّم الشهوات.

هؤلاء تحجزهم التقوى عن تقحّم الشهوات، ويتكسبون بالعبرة حصانة التقوى، وتتحول العبرة في حياتهم إلى تقوى تحصنّهم وتحجزهم... إن هذه العبرة نابعة من الوعي وتؤدي إلى التقوى في السلوك.

٤ـ العبرة والاعتبار في التاريخ في كلمات الإمامعليه السلام

بالعبرة والاعتبار يتحوّل التاريخ من علم إلى عظة، ،تعطي الإنسان الوعي، فالعبرة تنبع من الوعي وتعطي الوعي.

و يؤكدعليه السلام على مسألة الأعتبار وكيف يتحوّل التاريخ من علم إلى موعظة.

يقولعليه السلام: (ما أكثر العبر وأقلّ الاعتبار)[1].

وهو عليه السلام يريد أن يعلمنا كيف يتحوّل التاريخ إلى علم ومعايشة وكيف تتحوّل المعايشة إلى عبرة.

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾.

١ـ نهج البلاغة: كلمة ٢٩٧.

يقول عليه السلام: (اعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم: قد تزايلت أوصالهم، وزالت أبصارهم وأسماعهم، وذهب شرفهم وعزّهم، وانقطع سرورهم ونعيمهم، فبدّلوا بقرب الأولاد فقدها، وبصحبة الأزواج مفارقتها.لا يتفاخرون، ولا يتناسلون، ولا يتزاورون، ولا يتحاورون)[1]

(أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين؟ وأطفؤوا سُنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر ومدّنوا المدائن؟)[2]

(فاعتبروا بنزولكم منازل من كان قبلكم).

وهنا يبيّن عليه السلام أن منازلهم نفس المنازل والقوانين التي حكمتهم نفس القوانين التي تحكمنا.

(وأن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه، وأيامه، ووقائعه فلا يستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه)[3].

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٦١.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢.

(واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكّروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا في الشر أمثالهم)[1].

٦ـ كيف يتحول التاريخ والسياحة إلى عبرة ووعي وبصيرة؟

وكما أن التاريخ يتحول من سرد الأحداث إلى عبرة ووعي عندما تتحوّل القراءة الساذجة إلى قراءة عميقة واستنطاق ومعايشة... كذلك السياحة تتحوّل من حالة لهو إلى عبرة، ومن نزهة إلى عظة وبصرة... وهذا هو منهج القرآن في قراءة التاريخ وفي السياحة على وجه الأرض.

يقول تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ**﴾[2].

﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[3].

﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ**

١ـ نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ١٩٢.

٢ـ آل عمران: ١٣٧.

٣ـ الأنعام: ١١.

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[2].

وفي هذه الآيات جميعاً دعوتان: دعوة إلى السير والسياحة في الأرض، ودعوة أخرى إلى النظر والوعي، وان يسير الإنسان بعينين مفتوحتين وبصيرة وقلب واعٍ، وإلاّ كانت السياحة والسير لهواً ساذجاً بليداً في حياة الإنسان.

التاريخ والسياحة:

وهكذا يتحول التاريخ والسياحة من لهو وتسلية إلى علم وعظة في منطق أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: (وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوه وعما انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا)[3].

مرّ أمير المؤمنين على المدائن فلما رأى آثار كسرى

١ـ يوسف: ١٠٩، غافر: ٨٢، محمد: ١٠.

٢ـ النمل: ٦٩.

٣ـ نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

مرّ قرب خرابها فقال رجل ممن معه:

جرت الرياح على رسوم ديارهم
فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أفلا قلتم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[1].

١ـ الدخان: ٢٥ ـ ٢٩.

الفهرس